دراسات إفريقية

مجلة بحوث نصف سنوية

في هذا العدد

- مفهوم مصطلح السودان عبر التاريخ
  أ.د. مصطفي محمد خوجلي
- محددات ومهددات الهوية السودانية
  أ.د. حسن مكي محمد أحمد
- التقنية الملائمة لتنمية الريف السوداني
  د. نبيل محمد دقيل
- اللغة العربية وعصر المعلومات
  د. نبيل علي
- غريب القرآن الكريم واللهجات العربية المعاصرة
  أ. خالد محمد فرح
- أثر العولمة على العالم الإسلامي في العقود الأخيرة من القرن العشرين
  د. عبد الرحمن أحمد عثمان
- الرحلة الحجازية وأثرها العلمي على إفريقيا
  د. عوض عبد الهادي العطا
- وكالة أنباء إفريقيا : المعوقات المالية والاتصالية والاستراتيجية الإعلامية
  د. مرتضى الغالي

العدد الثالث والعشرون يونيو ٢٠٠٠م صفر ١٤٢١هـ

نبذة عن المجلة

دراسات إفريقية مجلة متخصصة تعني بالدراسات الإفريقية في مختلف العلوم الإنسانية غير أنها تولي عناية خاصة لواقع الإسلام والمسلمين في الأقطار الإفريقية غير العربية وهي تعمل علي تشجيع البحوث في القضايا المتصلة بالمجالات الآتية علي وجه الخصوص :

١- التعليم الإسلامي في إفريقيا

٢- اللغة العربية في إفريقيا

٣- انتشار الإسلام في إفريقيا

٤- الدعوة الإسلامية ونشاط الكنائس المسيحية في إفريقيا

٥- الخلفية التاريخية للمجتمعات الإفريقية المسلمة وأثرها في ممارسات المسلمين في إفريقيا

٦- العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بين إفريقيا وبقية العالم الرسلامي.

٧- التعريف بالمؤسسات العلمية التي تعمل في حقل الدراسات الإفريقية .

تصدر المجلة مرتين في العام ، واللغة العربية هي اللغة الأساسية للمجلة وتنشر بعض البحوث المكتوبة بالإنجليزية والفرنسية .

تنشر البحوث المجازة من قبل محكمين مختصين وتمنح أصحاب البحوث المجازة حوافز إكرامية تقديرا لجهود كاتبيها ويعطي مؤلف البحث المنشور عشرين نسخة من مقاله .

تنشر المجلة مراجعات الكتب الصادرة حديثا في عالم الدراسات الإفريقية وتستعرض الرسائل الجامعية بالإضافة للأعمال التوثيقية كالبيليوغرافيا .

يرجي من المؤلف أن يذكر نبذة تعريفية عن مؤلفاته وأبحاثه وعمله الحالي وعنوانه ويرفق خطابا يوضح أن بحثه لم ينشر من قبل في أية مجلة أو كتاب سواء أكان كاملا أم بشكل مختصر ويتعهد بعدم تقديمه إلي أية جهة أخري قبل أن تصدر المجلة قرارا بشأنه ، ومن جهة أخري تعمل هيئة التحرير علي إصدار قرار في خصوص البحث في غضون ثلاثة أشهر من تاريخ تسلمه .

لاتلتزم المجلة بإرجاع البحوث التي لا تنشر إلي أصحابها

تتراوح البحوث التي تنشر بالمجلة بين (٣٠٠٠ - ٥٠٠٠) كلمة ويرسل البحث مطبوعا من نسختين ، تكون الطباعة واضحة وعلي صفحة واحدة وتترك مسافات مزدوجة بين السطور كما يترك هامش علي الجهة اليمني بمقدار بوصة وربع البوصة ونفس المسافة علي الجهة اليسري في حالة البحوث المكتوبة بالحروف اللاتينية ، تطبع الحواشي والمصادر علي ورقة منفصلة في نهاية البحث ويشار إليها في صلب البحث بأرقام متسلسلة بين قوسين ، تطبع الخرائط والبيانات والجداول في صفحات منفصلة بحيث لاتتجاوز أبعادها حجم الصفحة.

د. عبدالرحمن أحمد عثمان

رئيس التحرير

دراسات إفريقية

مجلة بحوث نصف سنوية

يصدرها مركز البحوث والدراسات الافريقية بجامعة
إفريقيا العالمية ص. ب: ٢٤٦٩ الخرطوم - السودان

المقالات والبحوث المنشورة تعبر عن آراء كاتبيها
ولا تعبر بالضرورة عن آراء تتبناها هيئة التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات إفريقية

المشرف العام

البروفسير – عبد الرحيم علي محمد

رئيس هيئة التحرير

الدكتور – حسن مكى محمد احمد

رئيس التحرير

الدكتور – عبد الرحمن احمد عثمان

سكرتير التحرير

الاستاذ – يوسف خميس ابورفاس

اعضاء هيئة التحرير

الدكتور – ربيع عبد العاطى عبيد
الاستاذ – وداعة محمد الحسن عكود
الاستاذ – حسن سيد احمد الناطق
الاستاذ – تاج السر بشير
الاستاذ – كمال محمد جاه الله
الاستاذ – عبد الجليل ريفا

مستشارون

البروفسير – يوسف فضل حسن
البروفسير – عبد الله الطيب المجذوب
البروفسير – عثمان سيد احمد اسماعيل
البروفسير – مدثر عبد الرحيم الطيب
الدكتور – احمد خالد بابكر
الدكتور – الامين ابومنقة
الدكتور – عبد اللطيف البوني

كمبيوتر

صالح محمد علي

التصميم والاخراج الفنى

الوليد إبراهيم يوسف على دينار

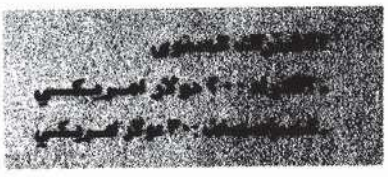

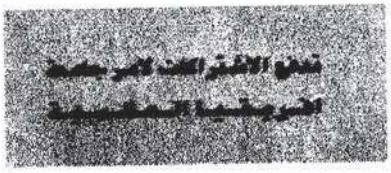

دراسات إفريقية

تمهيد

بين يدي القراء العدد الثالث والعشرون من دراسات إفريقية ، ونحن تخفق قلوبنا فرحاً مع صدور كل إصدار ة من هذه المجلة العلمية المتخصصة في الشأن الإفريقي والتي تصدر بثلاث لغات والتي لايوجد لها نظير في العالم اليوم .

إنّ مجلات الدراسات الإفريقية المتاحة أما ناطقة بالإنجليزية أو الفرنسية أو حتي الروسية ولكن هذه المجلات لا تصدر بالحرف العربي ولاتعطي أولوية في برامجها لقضية التأصيل ، وتقوية حركة الثقافة الإسلامية العربية .

إن التراكم الحادث لإصدارات هذه المجلة أصبح الأن يمثل موسوعة محترمة في الشئون الإفريقية ، كما أن هذه الموسوعة تمثل إنتاجاً معرفيا رفيعا يتناسب ومطلوبات المرحلة التي تجتازها الشعوب الإفريقية والإسلامية ، ويتناسب والتطور الذي بلغه التكوين العقلي من نخب هذه الشعوب ، ونأمل أن يتوالي صدور هذه الإصدارة رغم الظروف الصعبة التي تمر بها النخب في إفريقيا وعلي الأخص في السودان الحبيب .

والسلام .....

أسرة التحرير

دراسات إفريقية

المحتويات

- **مفهوم مصطلح السودان عبر التاريخ**
  أ.د. مصطفى محمد خوجلي ..... (٩)
- **محددات ومهددات الهوية السودانية**
  أ.د. حسن مكي محمد أحمد ..... (٢٣)
- **القضاء الشرعي في العهد التركي في السودان (١٨٢١-١٨٨١م)**
  د. عبد القادر عثمان محمد جاد الرب ..... (٣٣)
- **عوامل الاستمرارية والتغيير في ملامح الثقافة السودانية في منطقة وادي النيل الأوسط (نموذج السودان)**
  د. عمر حاج الزاكي ..... (٥٧)
- **التقنية الملائمة لتنمية الريف السوداني**
  د. نبيل محمد دقيل ..... (٦٩)
- **حركة التراث الحضاري في الشعر: التلاقح العربي الإفريقي في السودان**
  د. بله عبدالله مدني ..... (٨١)
- **فلسفة الصوفية في المبايعة والعهد**
  أ.د. حسن الشيخ الفاتح قريب الله ..... (٩٥)
- **اللغة العربية وعصر المعلومات**
  د. نبيل علي ..... (١٢١)
- **غريب القرآن الكريم واللهجات العربية المعاصرة**
  أ. خالد محمد فرح ..... (١٥٩)
- **أثر العولمة على العالم الإسلامي في العقود الأخيرة من القرن العشرين**
  د. عبد الرحمن أحمد عثمان ..... (١٧٩)
- **الرحلة الحجازية وأثرها العلمي على إفريقيا**
  د. عوض عبد الهادي العطا ..... (١٨٩)

☐ **وكالة أنبـــاء إفـريقيا : المـعوقـــات المـالية والاتصـالية والاســـتراتيـجية الإعلامية**

☐ د. مرتضى الغالى .....(٢٠٧)

الهـرريون: السـكان والإسـلام ونظام الحـكم

د. سيف الإسلام بدوي عمر ..... (٢١٩)

☐ **CONTRIBUTION OF THE SOKOTO JIHAD LEADERS IN DISSEMINATION OF ARABO-ISLAMIC KNOWLEDGE THROUGH LOCAL LANGUAGES**

Dr. Al Amin Abu-Manga..... (7)

☐ **PEACE-BUILDING IN HETEROGENEOUS COMMUNITIES OF SOUTH SUDAN: THE ROLE OF LOCAL COUNCILS**

Dr. Samson Samuel Wasssara .....(29)

منطقــة وادي النيل الأوسط

د . عمر حاج الزاكي *

مقــدمة :

تقتصر هذه الدراسة علي عوامل الاستمرارية والتغيير فى الثقافة السودانية فى ما أطلق عليه اصطلاحا ، منطقة وادى النيل الأوسط ، وهى المنطقة الممتدة علي ضفاف النيل ، وقريبا منه ، وعلى ضفاف رافديه الرئيسيين النيل الأزرق والأبيض وعلى البلاد المحصورة بينهما ، أما حدود المنطقة المعنية من جهة الجنوب فتبدأ عند جهات مدينة سنار فى أعالي النيل الأزرق ومايوازيها على النيل الأبيض ، وتحدها شمالا منطقة وادى حلفا فى أقصي شمال السودان ، ومن دواعى اقتصار البحث علي هذه المنطقة ثلاثة عوامل ، أولها أن المنطقة المعنية بالبحث ، في كثير من جهاتها ، عرفت الاستيطان البشري المتتابع منذ عصور متناهية في القدم (١) والعامل الثاني ويتمثل فيما يتوافر من معرفة عن طبيعة وتبلور الثقافات المتتالية فيها – ويشمل ذلك الآثار المادية والكتابات المنقوشة والمخطوطة والمطبوعة – الأمر الذي لم يتوافر بعد فى غيرها من بلاد السودان الواسعة الأرجاء ، وأخيرا فإن الجهة المعنية شهدت تراكم وتلاقح ثقافات السودان المختلفة بحكم ماظل يرد إليها من هجرات بشرية من أقطار البلاد المختلفة ، أما عن تعريف ماهية (الثقافة) فمعلوم أن الباحثين يذهبون مذاهب شتى في تعريف مدلول الكلمة ، ويلاحظ أنهم عادة مايتفقون على مفهوم جوهر – المدلول غير أنهم كثيرا مايختلفون حول التفاصيل ، ونتفق مع الدكتور علي عثمان محمد صالح الذي يعزى ذلك إلى تنوع التخصصات والاهتمامات لديهم (٢) .

ودون الخوض في أمر ذلك فإن مفهومنا الخاص عن معنى الثقافة يمكن إجماله فى " أنها مجمل الموروث من القيم السلوكية للجماعة ، ويشمل ذلك عاداتها ومعتقداتها وطقوسها وعمرانها وملبسها ودرجة تجاوبها مع الوافد الغريب من الثقافات الأخرى من حيث الفور أو الاستجابة ، والثقافة باختصار هى مجموع السلوك الذى يعطي كل جماعة ، أو أى فرد منها ، شخصيتها أو شخصيته المميزة .

* شعبة التاريخ والحضارة الإسلامية جامعة أمدرمان الإسلامية

وإن اختلف حول المدلول العام لكلمة ثقافة فقد اختلف ، أيضا حول الفترة الزمنية التي يمكن أن يؤرخ بها لأصول الثقافة السودانية ، فالبعض يري أنها تبدأ بقيام الدولة الاتحادية في سنار وقري (١٥٠٠ – ١٨٢١) (٣) بينما يري بعضهم أن تأصيل الثقافة السودانية يرجع إلي الفترة السابقة لها ، أي فترة السودان الوسيط(٥٠٠ – ١٥٠٠) ويري أخرون أن فترة التأصيل إنما تعـود لفترة ازدهـــار وسيادة نبتة ومروي (٧٥٠ ق. م – ٣٥٠م) (٤) وأخيرا فإن هناك من يرى أن الجذور الحقيقة للثقافة السودانية إنما تبدأ مع بداية العصور التاريخية فيه أي مع بداية ثقافة المجموعة الأولي (A-GROUP) التي ازدهرت في الجزء الشمالي من وادي النيل الأوسط (٣١٠٠ – ٢٧٠٠ ق.م) (٥) ومن رأينا أن ثقافة أقاليم النيل هي مجمل ماتبلور عبر كل العصور المذكورة وذلك لأن المنطقة حسب منظورنا ظلت وعبر العصور المتتالية ، ودون انقطاع ، تمثل بؤرة تفد إليها وتتعايش فيها الجماعات والثقافات لتتجسد في صورة هجين جديد يحمل بعضا من سمات الموروث وبعضا من سمات الوافد من الثقافات والسلالات البشرية .

ولما كان موضوعنا عن عوامل مظاهر الاستمرارية والتغيير في ثقافات أقطار النيل المعنية يغطي كل تلك المساحة من الأرض والأزمنة فليس من المتوقع أو العملي الخوض في أمر التفاصيل وإنما الاكتفاء بالتناول المجمل لتلك المظاهر التي تميز نوع وتبلور ثقافات هذه الرقعة الواسعة من السودان ، كما إننا لاندعي بأن لدينا من المعلومات عن كل الثقافات التي ازدهرت في الإقليم مانستطيع معه أن نتبين خصائص كل واحدة منها . ويشـتمل البحث بعد المقدمـة علي جزءين رئيسيين وخاتمة، الجزء الأول ويتناول طبيعة ، المنطقة والهجرات إليها ، بينما يتناول الجزء الثاني حقيقة التحولات الثقافية العرقية فيها .

المنطقة والهجرات اليها :

تلعب جغرافية الأماكن ، من حيث الموقع والمناخ والتضاريس والموارد الطبيعية دورا أساسيا في مجريات الأمور فيها كما تلعب دورا أخر وخطيرا فما يتعلق بجذب الهجرات الوافدة إليها ، وكـل ذلك يؤثـر تأثير عميقـا ، بل جذريا ، في بعض الأحيان ، في نوع وتطور ثقافاتها .

ومنطقة وادي النيل الأوسط ، تذخر ، بصفة عامة بالأراضي الشاسعة الخصيبة والسهول الفيضية والجزر النيلية ، وفي معظم أجزائها باستثناء الجهات الشمالية منها ، تتوافر المساحات الواسعة للمرعي والزراعة ، وتتمتع المنطقة عموما بوفرة المصدر المائية الدائمة من النيل وروافده ومايسقط من أمطار موسمية على أجزائها الجنوبية .

ونسبة لتوافر مصادر الرزق الضرورية للحياة في المنطقة فقد أمها البشر منذ العصور القديمة بل وتعد المنطقة من أميز بقاع العالم في جذب الهجرات الوافدة إليها ،

ويعزي استمرار هذه الهجرات منذ القدم وحتي وقتنا هذا إلي عاملين أساسيين ، أولهما عامل ذاتي ويتمثل في طبيعة المنطقة الغنية بالموارد الضرورية للحياة – الماء والكلأ – يضاف إلي ذلك سهولة الوصول إليها عبر منافذ عديدة من كل الجهات حيث تنعدم العوائق الطبيعية المانعة ، ولما تميزت به المنطقة من وفرة في الأرض والماء فإن الوافدين إليها لم يعتادوا مواجهة مشقات الحلول في مواضع جديدة يستوطنون فيها ، أو إثارة عداء ورفض العناصر السابقة لهم في الاستيطان .

أما العامل الثاني وراء استمرار الهجرات إلي أقاليم النيل المعنية فيعود إلي مايحيط بالمنطقة من مواطن طاردة عرفت بتصدير الهجرات البشرية ، ففي جهة الشرق ترقد شبه جزيرة العرب ، التي عرفت موطنا للهجرات الدائمة بسبب شح الموارد الطبيعية والحروبات القبلية (٦) ، ويمثل خروج العرب المسلمين من شبه جزيرتهم لنشر الدعوة الإسلامية واحدة من أكبر الهجرات التاريخية المعروفة في تاريخ تلك البلاد ، أما من جهة الغرب فإن البلاد الممتدة من غرب النيل وحتي حدود إفريقيا الغربية عند المحيط أو في بلاد ما كان يعرف لدي الأخباريين العرب ببلاد السودان فقد كانت ومازالت مصدرا دائما للهجرات نحو أقاليم النيل وذلك لما ظلت تعانيه من تقلبات في المناخ أدت إلي اتساع رقعة الصحراء وتعاقب فترات الجفاف ، وأصبحت أقطار النيل المعنية تمثل (الفردوس المفقود) أو الملاذ الطبيعي للجماعات الساكنة في ذلك الأقليم كلما قست عليها الطبيعة أو طحنتها الحروب القبلية .

ونسبة لعوامل الطرد في البيئات المجاورة لأقطار النيل وعوامل الجذب إليها كما بينا فإن تاريخ المنطقة إلي حد كبير ، إنما هو سجل لهذه الهجرات واحتكاكها بالعناصر المقيمة وثقافاتها المتجددين أبدا بما يفد عليها ، وتتجلي لنا هذه الحقيقة بتتبعنا لتواتر هذه الهجرات والكيفية التي تمت بها كما سنبين في الصفحات التالية .

إن أقدم أثر معروف لاستيطان الإنسان في المنطقة يرجع إلي حوالي ٢٠٠ر٠٠٠سنة قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، وهو الأثر المتمثل فيما يعرف بإنسان سنجة (٧) .

ويمثل مايعرف عند الآثاريين بموقع الخرطوم القديمة نشاطا بشرياً من العصر الحجري القديم (٨) مثلما يعكس موقع الشاهيناب واحداً من المواقع العديدة التي تنسب للعصر الحجري الحديث .

ومع حلول العصور التاريخية ، التي تبدأ بنهاية الألف الرابع قبل الميلاد بدأت المنطقة تشهد استيطانا ونشاطا بشريا منظمين ، وحسبما يتوافر لنا من آثار ودراسات فقد تمحور الازدهار الثقافي في الإقليم والسيادة السياسية عليه أو علي أجزاء كبيرة منه ، تارة في الشمال وتارة في الوسط وتارة أخري في الجنوب .

وإن لم تتم دراسات أثنية وافية عن كل سكان المنطقة غير أن مايتوافر منها يشير إلي أن الجماعات التي عمرت أقاليم وادي النيل الأوسط تميزت بتنوع الأجناس واختلاطها .

وبين السلالات القديمة التي عاشت في الجزء الجنوبي من الإقليم مايعرف بإنسان سنجة الذي ينسب لسلالة البوشمن (Bushmen) (٩) ويعتبر البوشمن ، وهم الذين يعيشون اليوم في المناطق الوسطي والشمالية من صحراء كلهاري وفي القسم الشمالي من إفريقيا الجنوبية الغربية ، من أقدم سكان إفريقيا ، كما تتفق الآراء علي أنهم قد جاءوا من هضبة شرق إفريقيا ثم انتشروا في كل جنوب القارة (١٠) وإن كانت منطقتنا المعنية بالبحث تمثل بحكم موقعها ، معبرا من معابر هذا الإنسان جنوبا ، بل وربما كانت موطنا له في فترة من الفترات ، غير أننا لاندري أثرا معلوما لهذه الجماعة في أجناس وثقافات المنطقة .

ومن الجماعات الأولي التي عمرت أجزاء من أقاليم وادي النيل الأوسط من يعرفون بسكان الخرطوم القديمة ، وتنسب هذه الجماعة لأجناس الزنوج غير أنهم لم يكونوا يشبهون أياً من الجماعات الزنجية المعروفة اليوم إذ تميزوا عنها بضخامة الوجه وعظم الفكين (١١) .

وهكذا نجد أن الكوشيين (نبتة ومروي) جمعوا بين الدماء الزنجية والحامية (١٢) وفي القرون الأخيرة من عمر هذه المملكة بدأ زحف عناصر زنجية صوب النيل والاستقرار فيه والاختلاط بسكانه (١٣) . ونتيجة لذلك ظهرت غلبة العناصر الزنجية في الفترة الانتقالية بين نهاية المملكة المروية وقيام الممالك النوبية (٣٥٠ - ٥٥٠م) وهي فترة ازدهار ثقافة المجموعة (x) (X- Group) (١٤) ومن الشواهد الخطية علي تنوع العناصر في مملكة مروى في آخر أيامها ماورد في نقش عيزانا ملك اكسوم والذي ميز بين الكاسو (الكوشيين) والنوبة السود والنوبة الحمر (١٥) .

وما إن استقرت الأمور في شمال ووسط وادي النيل الأوسط للعناصر النوبية حتي بدأ احتكاكها بالعناصر السامية(العربية) وسرعان مابدأ الاختلاط العرقي الثقافي في النوبة الشمالية المارس) (١٦) وعلي منواله وعلي مدي قرون عديدة ظل العنصر العربي يمتزج ثقافيا وعرقيا بالعناصر السابقة له في الإقامة في وادي النيل الأوسط وتأثر كل سكان وادى النيل الأوسط من أقصي الشمال إلى أقصى الجنوب بالثقافة والعناصر الوافدة مكونين حلقة أخيرة في منظومة التمازج العرقى - الثقافى الذي ما أنفك يتكرر منذ القدم .

ومثلما أدي اختلاط الأعراق بين الوفدين والمقيمين في أقاليم النيل إلي ظهور هجين جديد من البشر هم غالبا من أنصاف القوقاسيين (حاميين أو ساميين) والزنوج فقد تكرر حدوث ذات الأمر بالنسبة للثقافات المحلية والوافدة ،

ومما ساعد علي تعايش الثقافات الوافدة وتفاعلها مع الثقافات المحلية أن الهجرات الوافدة لم تكن تأخذ طابع الغزو الذي يؤدى إلى إجلاء السكان المقيمين أو قهرهم مما يثير العداوة ومايتبع ذلك من صراع وتنافر (١٧) ، وهيأ هذا التعايش السلمى مناخا طيبا للحوار فالتلاقح بين الثقافات الوافدة والمقيمة (هجين ثقافى) هو الموروث الحضارى المتجدد أبدا بتجدد الهجرات .

حقيقة التحولات الثقافية العرقية :

وحتي يسهل تصور ما كان يجرى دائما من تجاور وتحاور ثم تمازج بين الثقافات الوافدة والمحلية نتناول في الصفحات التالية ، وبشيء من التفصيل ، الكيفية التي كان يتم بها ذلك وبصفة خاصة في فترة السودان الوسيط لما يتوافر لنا من معلومات عنها .

إن الدارس لتاريخ الهجرات إلى وادي النيل الأوسط وما كان يتبع ذلك من تحول فى الثقافة والأنساب والسيادة على الإقليم أو جزء منه يجد أن هذا التحول كان يتم فى كل مرة، في دورات مداها سبعة قرون تزيد أو تنقص قليلا ، فازدهار المجموعة (أ) استمر لسبعة قرون امتدت بين القرن الواحد والثلاثين والقرن الرابع والعشرين قبل الميلاد ، ثم كانت الغلبة لثقافة وعنصر (حامي زنجي) المجموعة (جـ) ، ودام ذلك لفترة ثمانية قرون تقريبا ، واستمرت الغلبة للثقافة الفرعونية المصرية المحلية فى عهد نبتة ومروى لفترة سبعة قرون امتدت بين القرن الثامن والأول قبل الميلاد ، وفى التاريخ الأخير بدأت غلبة الثقافة المحلية(الإفريقية) في الحضارة المروية ، وفى فصل آخر من فصول التحول الثقافى العرقى فى المنطقة بدأت هجرات النوبة واستيطانهم فى مناطق نفوذ الدولة المروية فى القرن الثالث قبل الميلاد (١٨) حتي تمت لهم الغلبة الثقافية والسياسية علي بلاد المرويين في القرن الرابع الميلادى، وأخذ ذلك حوالي سبعة القرون أيضا ، وأخيرا بدأ الاحتكاك والاختلاط بين النوبيين فى المارس والمقرة بالعرب فى القرن السابع الميلادى ليتم التحول الثقافى والعرقى فى القرن الرابع عشر الميلادى فى سبعة قرون أيضا (*) .

إن تكرارظاهرة " القرون السبعة" ترتبط إلى حد كبير بطبيعة تواتر الهجرات إلى أقاليم النيل وتؤكد ماذهبنا إليه من أن التحول الثقافى السودان كان يتم بتدرج بطيء هيّأ فى كل مرة ،وقتا كافيا للتحاور فالتمازج ومن ثم ميلاد كائن جديد يحمل سمات الثقافات الوافدة والموروثة .

ولكن وخلافا لما ذهبنا إليه عن حقيقة كيفية التحول الثقافى والعرقى فى السودان فإن المؤرخين يرسبون في أذهاننا مفاهيم مغلوطة عن ذلك فهم مثلا حينما يؤرخون لنهاية مملكة المقرة يجعلون من العنوان (سقوط دنقلا) عنوانا ومدخلا لما يوردون من حقائق الأمر الذى يكرّس فى الأذهان صورة من صور التغيير الحادة التى تعقب تغلب الغزاة على المستوطنين وفى هذه الحالة يفهم تغلب العرب المسلمين علي النوبة المسيحيين .

وإذا ما أخذنا قصة(دنقلا للعروبة والإسلام) وليس (سقوطها) لوجدنا أنها تمثل نموذجا صادقا لما ظل يتكرر من تحولات ثقافية وعرقية فى أجزاء أخرى من وادى النيل الأوسط ، بصفة خاصة ، وفى السودان بصفة عامة .

نعلم أنه بعد فتح مصر علي أيدى المسلمين في عام ٦٤١م دارت عدة معارك حربية بينهم وبين مملكة المقرة النوبية المسيحية ، وانتهى الأمر بما يعرف باتفاقية أو صلح (البقط)

وهي الاتفاقية التي حددت ونظمت العلاقة بين الطرفين لقرون عديدة ، ومايهمنا ويناسب موضوعنا في هذا البحث ذلك النص من الاتفاقية الذي يلتزم فيه كل من الطرفين بالمرور ببلاد الآخر مجتازا وليس مقيما (.. علي أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه ..) (١٩) ويلاحظ أن أيا من الطرفين لم يلتزم بهذا النص ، والمصادر المتاحة تشير إلى تسرب بعض الجماعات العربية إلى الجزء الشمالى من مملكة المقرة واختلاطهم بالعناصر النوبية والبجاوية منذ القرن الثالث الميلادى (٢٠) كما وتؤكد الأبحاث الأثرية قيام مجتمعات عربية إسلامية مستقرة فى منطقة المارس وعلى تأثير هذه الجماعات العربية فى النوبيين (٢١) .

وفى العهد الفاطمى (٩٦٩ – ١١٧١م) اختلط عرب ربيعة بالنوبيين وتزوجوا من بنات رؤسائهم وكوّن هؤلاء إمارة عربية نوبية . وفى العهد الأيوبى اضطر بنو الكنز إلى الرحيل جنوبا والاندماج التام فى سكان المارس ومن الجهة الأخرى فإن أعدادا هائلة من النوبيين ، تقدر بأربعين ألف رجل ، انخرطت في الجيش الطولونى حينما بدأ ابن طولون استخدامهم فى الجيش بدلا من العناصر العربية ، ويبدو أنهم اعتنقوا الإسلام بدليل ماتردد عن شكوى أهل مصر بامتلاء المسجد الجامع يوم الجمعة بالجند السودانيين (٢٢) .

وهكذا ظل التداخل العربي النوبي وتبادل الجماعات والثقافات حتى انتقل الحكم فى مطلع القرن الرابع عشر إلي أيدى المسلمين من أبناء بنات أو أبناء أخوات الملك الحاكم ومعلوم أن أول حاكم لدنقلا المسلمة ، وهو عبدالله برشمبو ، لم يكن عربيا ، وبعد التحول فى السيادة على دنقلا لم يتدخل العرب المسلمون فى تغيير العقائد أو الثقافة بل تركوا كل فرد يتبع مايرتضيه لنفسه ، والشواهد على ذلك كثيرة نذكر منها كيف أن العديد من أفراد الشعب ظلوا علي عقيدتهم المسيحية بعد (سقوط دنقلا المزعوم) بل إن الشيخ غلام الله بن عائد اليمني حينما قدم إلي دنقلا فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر وجدها كما تخبرنا بعد كتب النسب السودانية ، فى غاية من الحيرة الشديدة والضلالة لعدم وجود القرآن والعلماء بها (*) .

مع تزايد الهجرات العربية إلى الأجزاء الوسطى والجنوبية من أقاليم وادى النيل الأوسط تتكرر صورة ماوقع من تمازج عرفى ثقافي في مملكة المقرة ثم التحول إلى عصر ثقافة جديدة وهي الثقافة العربية الإسلامية القائمة اليوم ، ويصدق مايقال عن طبيعة التحول الثقافى العرقى في المقرة وعلوة على ماحدث فى دارفور وكردفان فى العصر الوسيط من تاريخ السودان .

ومن الشواهد الدالة على حلول فترة انتقالية سابقة للتحول مثل تلك التى مر بها سكان المقرة ومن قبلهم سكان مروى نصّان أحدهما ليوحنا السورى والثانى للشيخ ودضيف الله ، وقد جاء فى وصف الأول عن سكن علوة ، قبيل قيام مملكة الفونج " أنهم " ليسوا

بمسيحيين ولايهود ولا مسلّمين (٢٤) ، وأفاد الشيخ ودضيف الله عن حالة السكان المماثلة فى كل ماعرف بأرض النوبة ، حتي مطلع القرن السادس عشر حيث يقول إنه " لم يشتهر فى تلك البلاد (يعني أرض النوبة) مدرسة علم ولا قرآن ، ويقال إن الرجل كان يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهارها من غير عدة ..(٢٥) .

وجدير بالملاحظة أن مؤسسى الممالك الإسلامية التي رعت ازدهار الثقافة العربية الإسلامية لم يكونوا عرباً خلصا – فأولهم ، فى دنقلا ، عبدالله برشمبو كان نوبيا ، وعمارة دنقس ، مؤسس مملكة الفونج ، وحسبما ورد عن وصف ملامحه (٢٦) كان يحمل صفات زنجية ، كما كان سيمان صولون مؤسس مملكة الفور الإسلامية من أب عربى وأم فوراوية (٢٧) وكان قيلى أبوجريدة أول ملوك تقلى المسلمين من أب عربى وأم نوبية (٢٨) ومايقال عن الحكام يصدق ، إلي حد كبير ، على بقية الشعب .

ونخلص من هذا إلى أن دنقلا وسويا وقبلهما مروى لم تسقط بفعل الغزاة وإنما تغير السكان فى كل واحدة منها عرقيا باختلاط الأنساب وثقافيا بتحاور وتلاقح الثقافات ، وكان التغيير فى كل مرة بطيئاً بطء الهجرات الوافدة إلى أقاليم النيل ، وفي كل مرة جاءت لحظة التحول " لا " السقوط " كخاتمة حتمية لنمط التحول الثقافى العرقى الذي تميزت به المنطقة عبر تاريخ طويل .

وإن جمع الناس بعد التحول خصائص ثقافية مشتركة فإن مدلولها يبقى مدلولا ثقافيا أكثر منه جنسيا ، وعموما فإن الربط بين الصفات الثقافية من لغة ودين وغيره يجب ألا تدخل في الحسبان عند تقسيم الناس إلي أجناس ذلك لأن الجنس هو مجموعة من الناس تشترك مع بعضها البعض ، ونسبة لاستمرار اختلاط الأعراق والثقافات فى أقاليم وادى النيل الأوسط ، منذ الأول ، كما بينا ، يبقى من المستحيل الحديث عن جنس معين أو ثقافة معينة، وعزله أو عزلها عما ظل يجري من تفاعلات في المنطقة أمرا مستحيلا من وجهة النظر العلمية أو الواقعية .

خاتمة :

إن تاريخ السكان في منطقة وادى النيل الأوسط هو تاريخ الانفتاح والتفاعل الثقافى العرقى المستمر وأى نظرة تسعي لتقطيع وحدة التاريخ فيها تقف دون فهمنا الصحيح وحكمنا الصادق على كل ماتبلور فيها من ثقافات ، إن الذين يتحدثون اليوم عن العروبة أو الإفريقية المفردة فى المنطقة يتخطون القرون ويضربون صفحا عن كل ماجرى في هذه البلاد العريقة ويهملون التفاعلات الحضارية العرقية التى حدثت ويعزلون بذلك تاريخ المنطقة عن المجارى التي انصبت فيه ، ومما لاشك فيه أن ما نتخذه من مواقف خاطئة عن الماضى يؤثر سلبا في معتقدات الحاضر وآمال المستقبل .

وحتي لايفسد مانتخذه من مواقف خاطئة عن الماضى حوار الثقافات الذي ظل دائرا فيبهذه البلاد منذ الأزل لابد من فهم ذلك الماضى فهمًا صحيحا وعندها تزول كثير من أسباب الصراع الثقافى العرقى ألبادية اليوم .

وقبل أن نأتى إلي نهاية هذا البحث يجدر بنا أن نقف باختصار شديد علي أهم الخصائص التى ظلت تمثل المعالم البارزة والمؤثرة والباقية المتجددة فى جذور الثقافة السودانية بالرغم من التحولات الدورية التى أشرنها إليها ، وتلك السمات ثلاث ، هى البداوة والتدين والانفتاح على الآخرين وتقبلهم .

البداوة يفهم مما قدمنا أن الوافدين إلي أقاليم النيل في وسط السودان كانوا من البدو الذين اختل عندهم النمط الطبيعي فى الحصول على الأوزان أو أولئك الذين فقدوا الأمن بسبب الحروب ، وبقيت كثير من خصائص البدو سائدة بين سكان النيل من الحضر ومتجددة بتجدد الهجرات الوافدة إليهم ، وأن بدأ انحسار كثير من تلك المظاهر بسبب التحولات الحضارية البادية غير أن الكثير من طباع البدو وقيمهم مازالت محسوسة فى ثقافة سكان النيل ، فصفات الكرم والشجاعة وغوث المستجير والتكافل الاجتماعى وظاهرة الأسرة الممتدة والعقلية القاصرة عن التعامل السليم مع مؤسسات ومستحدثات المدنية بالكفاءة اللازمة وغير ذلك ، كلها خصائص بدوية .

الدين : وفيما يتعلق بالعقائد الدينية فقد ظل الوجدان الدينى متقدا عند سكان النيل ومؤثرا فى ثقافتهم منذ العصور القديمة ، والمشهود به مواكبتهم لكل طارىء وجديد في معتقدات العالم من حولهم مرورا بالوثنية البدائية فالوثنية المتطورة على النمط الفرعونى المصرى فالديانات السماوية المسيحية والإسلام ، ويشهد على صدق الأحساس الدينى عند سكان المنطقة وعمق جذور ذلك فى تكوينهم الثقافى ماشهدته عصور التاريخ المختلفة من نزعات وثورات دينية ومايشهده الحاضر من تطلع لقيام الدولة الدينية فى السودان .

الانفتاح علي الآخرين وتقبلهم : يكفى للتدليل علي انفتاح سكان النيل على الآخرين وتقبلهم ما استطردنا فى شرحه عن الكيفية التي تمت بها الهجرات إلي أقاليم النيل ، فقط نود أن ننبه إلي أن فتح البلاد بالصورة القائمة اليوم أمام الهجرات الوافدة وبالعفوية الفطرية التى ظلت تتكرر بها فى العصور الخالية لم تعد مقبولة بعد تبلور القوميات وقيام الدول الحديثة .

الهوامش :

(١) وأقدم أثر معروف للإنسان مايعرف بإنسان سنجة الذي عثر علي جمجمته فى تلك المدينة فى جنوب النيل الأزرق

(٢) راجع : A. J. Arkell; **Bates, Wells and Lacaile The Fossil of Mammals of Africa**. 11. The Pleislocene of two Nile Sites, London. 1951

(٣) على عثمان محمد صالح " *ماهية الثقافة كمصطلح علمى* " بحث مقدم لندوة التخطيط لجمع ودراسة الثقافة المادية والفنون والحرف الشعبية بدولة قطر فبراير ١٩٨٥م، ص ٢

(٤) على عثمان محمد صالح " *خواطر حول أصول الثقافة السودانية* " محلة الثقافة السودانية ، عدد (٢٥) أغسطس ١٩٨٠م ، ص ٦٦

(٥) أحمد محمد علي الحاكم " *النوبة وتاريخ السودان القديم* " آداب – مجلة كلية الآداب – جامعة الخرطوم ، العدد الرابع ١٩٨١م ، ص ٨٧ – ٨٨

(٦) فيليب حتى وآخرون : تاريخ العرب (مطول) – الجزء الأول ، الطبعة الرابعة ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ١٩٦٥م ص ١٥ – ٣١

(٧) انظر الهامش (١)

(٨) . J. Arkell ; **Early Khartoum** , Oxford , 1949

(٩) انظر الهامش (١)

(١٠) إبراهيم أحمد زرقانة ، محمد متولى ومحمد محمود الصياد : الأجناس البشرية ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٧٠م ص ١٣٦

(١١) A. J. Arkell ; **History of the Sudan from the Earliest times to 1821** (3 rd, edition) The Athlone Press , London , 1961 . P. 25

(١٢) راجع مثلا ما أورده " دنم " بعد دراسة ثلاثة جماجم وجدت في الكرو
D. Dunham: **The Royal Cemeteries of Kush**. Vol.1. El Kurru. Boson . 1955.pp. 118.119

(١٣) O. Vagan Neilson : **Human Remains** . Scandinavian Expedition .9 1970 . p. 81.

(١٤) S. B. Dafa, alla : *Political and Social Development In Northern Nubial Dupring the post Merotie Period , A. D. 276 - 580* (Unpub , Ph D. Thesis . Uiv . of Cambridge , Sep . 1980) p. 34

(١٥) راجع محفورة عيزانا المترجمة العربية فى بازل دافيد سن : إفريقيا تحت أضواء جديدة (ترجمة جمال محمد أحمد) بيروت ١٩٥٨م ، ص ٢٢ –٢٨

(١٦) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٩٠م ،

ص ١٢٨ – ١٢٦

(١٧) انظر ما أوردنا عن أسباب ذلك في ص ٤٠

(١٨) S.B. Dafa Alla , Op.cit., . P. 115 - 116

(١٩) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخـطط والآثـار ، الجزء الأول ، طبعة بولاق ، ١٢٧م ، ص ٢٠٠

(٢٠) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الجزء الثالث ، باريس ١٨٦٦ –١٨٧٧، ص ٤١

(٢١) De. Villard فى مصطفى مسعد ، ص ١٣٠

(٢٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ، ص ٣٢

(٢٣) يوسف فضل حسن : دراسات فى تاريخ السودان ، الجزء الأول ، دار التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطوم ، ١٩٧٥م ص ٦٦ ، هامش (١)

(٢٤) F.A Ahares يوسف فضل حسن : المصدر السابق ، ص ٦٦٧

(٢٥) محمد النور ودضيف الله: كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان تحقيق يوسف فضل الخرطوم ١٩٧١ ص ١٠–١١ .

(٢٧–٢٩) يوسف فضل حسن : مقدمة فى تاريخ الممالك الإسلامية فى السودان الشرقي ١٤٥٠ – ١٨٣١ ,الدار السودانية للكتاب – الخرطوم ١٩٧٣م ، ص ٦٣ ، ٨٤ ، ٩٩ على التوالى .

* وإذا أعتبرنا أن بداية التحول الثقافى القائم اليوم فى وادى النيل الأوسط ترجع إلى مطع القرن الرابع عشر الميلادى وقد مضي عليها قرابة سبعة قرون فهل نحن علي أعتاب تحوّل ثقافى جديد مع نهاية هذا القرن ؟ وهل تمثل هجرة الملايين العديدة من غربى إفريقيا وشرقها ومن غرب وجنوب السودان إلى أقاليم النيل واحدة من الهجرات التاريخية المماثلة التي أحدثت التحول الثقافى العرقى فى الماضي ؟ وهل الدعوة للإفريقية مع الهجمة على ثقافة وادى النيل القائمة تمثل إرهاصا لهذا التحول ؟

الجواب : إذا سارت الأمور بالعفوية التي كانت تحدث بها في الماضى والتى تحدث الآن فلا أقل من أن نعد أنفسنا شهود فصل من فصول التحول التاريخى التى ظلت تتكرر كلما تهيأت لها ذات الظروف !!!

* وفى نظام التوريث (الأمونى) حيث يرث ابن الأخت خاله أو ابن البنت جده نظام معروف عند الشعوب الحامية كما عرف فى السودان خاصة في مملكة نبتة – مروى وعرف أيضا عند النوبة والبجة والفور وفى مملكة تقلى في العصر الوسيط ، وقد استفادت الجماعات الوافدة إلى السودان من نظام التوريث هذا فى وراثة الحكم دون منازعة .

* وتستهوى كاتب هذا المقال فكرة طرحها السيد عبدالماجد عبدالله (راجع مقالنا فى جريدة السياسة العدد ١٠٦ بتاريخ ١٩ اكتوبر ١٩٨٦م) عن حقيقة أصل اسم " السودان " المعروف به اليوم ، ومن رأيه ، وخلافا للرأي السائد عن الأصل العربى المعروف للكلمة ، أن كلمة " سودان " ليست سوى اختصار لكلمة (ساودان) الدنقلاوية، والكلمة الدنقلاوية مركبة من مقطعين هما " ساو "

وتعنى " هجين " أى خليط و " دان " وتعنى " الآتى أو الجاى " ومع دمج المقطعين حذفت الألف الأولى لتكونا كلمة سودان .

ويعتقد أن الكلمة ولدت بعد التزاوج الذى تم بين العرب والنوبة وأن الناس كانوا يتلهفون ساعة وضوع الأطفال لمعرفة لون بشرة الطفل تلهفاً لكونه ذكرا أم أنثى وكانت القابلة تقول عن الطفل " خاطف اللونين " أنه " ساودان " أى " هجين " يجمع لون بشرته بين سمرة النوبة وبياض العرب .

واخضاعنا هذا الافتراض للدراسة والتحليل السريعين يجعلنا نرجح ماذهب إليه السيد عبدالماجد ذلك لأن الهجين " الساو " انتشر فى رقعة واسعة من إفريقيا شملت كل ما كان يعرف ببلاد السودان لدى الإخباريين العرب ، ومعروف أن الناس انطلاقا من بلاد البجة فى السودان الشرقي وفى وسط وغرب إفريقيا اختلطوا اختلاطا كبيرا بالقبائل العربية الوافدة من جهات المشرق والمغرب العربى ، وفى كل هذه الجهات تجد الهجين " الساو " ذي الدماء العربية الزنجية ، ومن المرجح أن كلمة (ساودان) سمعت أولا فى بلاد النوبة ومن ثم عم انتشارها ، ثم فقدت الكلمة معناها الأصلى ومصدرها واختلط الأمر علينا لتشابه الكلمات وقرب المعني فتبيننا الأصل العربي للكلمة لاعتقادنا أن العرب نظرت بشرة سكان هذا الحزام من إفريقيا فسمتهم السودان .

وإن صح الافتراض الأخير فلا أقل من أن نقول إن القابلة الدنقلاوية سبقتنا بقرون عديدة فى تحديد هويتنا العرقية الثقافية ، وهل سكان وادى النيل الأوسط ومعظم أهل السودان الآن إلا من " الساودان " عرقيا وثقافيا ؟